قلت لنفسي...
وقالت لي... (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لنفسي: ويحكِ يا نفسُ! مالي أُحامِلُ عليكِ؛ فإذا وفَيْتِ بما في وُسْعكِ أردتُ منكِ ما فوقه وكلّفتُكِ أن تَسْمي؛ فلا أزال أُعْنِتُكِ من بعد كالٍ فيما هو أكملُ منه، وبعد الحَسَن فيما هو الأحسن، وما أنفكُّ أُجْهِدُكِ كلما راجَعَكِ النشاط، وأُمنّيكِ كلما ثابت القوّة؛ فإن تكن لكِ همومٌ فأنا أكبَرُها، وإذا ساوَرَتْكِ الأحزانُ فأكثرُها مما أجلبُ عليكِ. أنتِ يا نفسُ سائرةٌ على النَّهج وأنا أعتسِفُ بكِ، أُريد الطيرانَ لا السَّير، وأبتغي عملَ الأعمار في عُمُر، وأستحِثُّكِ من كل هَجْعةِ راحةٍ بفجرٍ يمتدُّ منه نهارٌ مضطرب؛ وكأني لكِ زمنٌ يُمادُّ بعضُه بعضاً، فما يبرحُ يَنْبثِقُ عليكِ من ظلامٍ بنورٍ ومن نورٍ بظلامٍ؛ ليُهيِّئَ لكِ القوّةَ التي تمتدُّ بكِ في التاريخ من بعدُ، فتذهبي حين تذهبين، ويبقى قلبُكِ في العالم سارياً بكلمات أفراحه وأحزانه.

وقالتْ لي النفس: أمّا أنا فاني معكَ دأباً كالحبيبة الوفيّةِ لمن تُحِبّ؛ ترى خضوعَها أحياناً هو أحسن المقاوَمة. وأما أنتَ فاذا لم تكن تتعبُ ولا تزالُ تتعب، فكيف تدلُّني أنك تتقدّمُ ولا تزالُ تتقدّم؟

ليستْ دُنياكَ يا صاحبي ما تجدُه من غيرك، بل ما تُوجدُه بنفسك؛ فان لم تَزِدْ شيئاً على الدنيا كنتَ أنتَ زائداً على الدنيا، وإن لم تَدَعْها أحسنَ مما وجدتَها، فقد وجدتَها وما وَجَدَتْكَ، وفي نفسك أولُ حدودِ دنياكَ وآخرُ حدودِها. وقد تكون دنيا بعضِ الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخرِ كالقرية المُلْتَفّة، ودنيا بعضِهم كالمدينة الكبيرة؛ أما دنيا العظيم فقارةٌ بأكلها، وإذا انفردَ امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا.

والقوّةُ يا صاحبي تَغتذي بالتعبِ والمعاناة؛ فما عانيتَه اليومَ حركةً من جسمك، ألفيتَه غداً في جسمك قوّةً من قُوى اللحم والدم. وساعةُ الراحة بعد أيامٍ من التعب، هي في لذّتها أيامٌ من الراحة بعد تعب ساعة. وما أشبهَ الحيَّ في هذه الدنيا ووَشْكَ انقطاعِه منها — بمَنْ خُلِق ليعيش ثلاثةَ أيامٍ معدودةٍ عليه ساعاتُها ودقائقُها وثوانيها؛ أفتراه يَغفل فيُقدِّرُها ثلاثةَ أعوام، ويذهبُ يُسرفُ فيها ضُروباً من لهوِه ولعبِه ومُجونه، إلا إذا كان أحمقَ أحمقَ الى نهايةِ الحُمْق؟

إتعبْ تعبَكَ يا صاحبي، ففي الناس تَعَبُ مخلوقٍ من عمله، فهو ليِّنٌ هيّنٌ مُسوّى تسويةً؛ وفيهم تَعَبُ خالقٍ عملَه، فهو جبارٌ متمرِّدٌ له القهرُ والغلَبة. وأنتَ إنما تكدُّ لتسموَ بروحك الى همومِ الحقيقة العالية، وتسموَ بجسمك الى مشقّات الرُّوح العظيمة؛ فذلك يا صاحبي ليس تعباً في حفرِ الأرض، ولكنه تعب في حفر الكنز.

إتعبْ يا صاحبي تعبَكَ؛ فإن عناءَ الروح هو عُمُرها؛ فأعمالُكَ عُمُرُكَ الرُّوحاني، كعُمُر الجسم للجسم؛ وأحدهما عُمُرُ ما يعيش، والآخر عُمُرُ ما سيعيش.

* * *

قلتُ لنفسي: فقد مَلِلْتُ أشياءَ وتبرّمتُ بأشياء. وإن عَمَلَ التغيير في الدنيا لَهُو هدمٌ لها كلما بُنيتْ، ثم بناؤُها كلما هُدمتْ؛ فما من شيءٍ إلا هو قائمٌ في الساعة الواحدة بصورتين معاً؛ وكم من صديقٍ خلطتُه بالنفس يذهبُ فيها ذَهابَ الماءِ في الماء، حتى إذا مرَّ يومٌ، أو عَهْدٌ كاليوم، رأيتُ في مكانه إنساناً خيالياً كمسألةٍ من مسائل النُّحاة فيها قولان ...! فهو يحتمل تأويلَ ما أظنُّ به من خير، وما أتوقّع به من شرّ! وكم من اسمٍ جميلٍ إذا هَجَسَ في خاطري قلتُ: آه، هذا الذي كان ...!

أما والله إن ثياب الناس تجعلهم أكثرَ تشابُهاً في رأي النفس، مما تجعلهم وجوهُهم التي لا تختلف في رأي العين. وإني لأرى العالَمَ أحياناً كالقطار السريع منطلقاً بركْبِه وليس فيه من

(١) كتبت في ساعة فجر، من هذه الساعات الطارئة على الروح، يخيل للمرء فيها أنه هو وحده، والعالم كله وحده؛ ذاك في وجود نفسه خاصة، والآخر في وجود الطبيعة كلها.

يقوده . وأرى الغفلة غــرطة قد بلغت من هذا الناس مبلغ من يظن أنه حي في الحياة (كالموظف تحت التجربة) . فإذا قضى المدة قيل له : ابدأ من الآن ؛ كأنه إذا عاش يتعلم الخير والشر ، ويدرك ما يصلح وما لا يصلح ، وانتهى من عمره الى النهاية المحدودة — رجع من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة ، وفي إدراك وتمييز . مع أن الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يعد مبها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه ، بل وجدوه مولوداً في فراشه ...!

وقالت لي النفس : وأنت ماشأنك بالناس والعالم ؟ ياهذا ، ليس لمصباح الطريق أن يقول : « إن الطريق مظلم » إنما قوله إذا أراد كلاماً أن يقول : « هأنذا مضيء . »

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتملل ، كما أنه لا يتسخف ولا يطيش ولا يسترسل في كذب الوهم ؛ فإن هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمة الانسانية ، لا أثر الروح القوية في إنسانها . والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس . وبين كل شيئين مما يعتور الحيوانية كالخلو والامتلاء ، واللذة والألم — تعمل قوى الحيوان أشياءها الكثيرة التي تتسلط بها على النفس لتحطها من مرتبة مرتبة الى أن تجعلها كنفوس الحيوان ؛ ولهذا كان أول الحكمة ضبط الأدوات الحيوانية في الجسم ، كما توضع اليد العالمة على مفاتيح القطار المنطلق يتسعر مرجله ويغلي

إعمل ياصاحبي عملك ؛ فاذا رأيت في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله ، بل خذ اطمئنانه الى اطمئنانك ، ودعه يخلو وتضاعف أنت

إنه ليوشك أن يكون في الناس ناس (كالبنوك) : هذه مستودعات للمال تحفظه وتخرج منه وتثمره ، وتلك مستودعات للفضائل تحفظها وتخرج منها وتزيدها . وإفلاس رجل من أهل المال هو إطلاق النكبة مسدداً منها على رجل تقتله ؛ ولكن إفلاس (بنك) هو إطلاق النكبة بدفعها الكبير على مدينة تدمرها

***

قلت لنفسي : فما أشد الألم في تحويل هذا الجسد إلى شبه روح مع الروح ! تلك هي المعجزة التي لا توجد في غير الأنبياء ، ولكن العمل لها يجعلها كأنها موجودة . والأسد المحبوس محبوسة فيه قوته وطباعه ؛ فان زال الوجود الحديدي من حوله ، أو وهنت ناحية منه انطلق الوحش .

والرجل الفاضل فاضل ما دام في قفصه الفكري ، وهو مادام في هذا القفص فعليه أن يكون دائماً نموذجاً معروضاً للتنقيح الممكن في النفس الانسانية ، تصيبه السيئة من الناس لتختبر فيه الحسنة ، وتبلوه الخيانة لتجد الوفاء ، ويكسر ثه البغض ليقابله بالحب ، وتأتيه اللعنة لتجد المغفرة ؛ وله قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتدأ التعب ليبلغ منزلة أعلى منها ، وله فكر كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها

وقالت لي النفس : إن من فاق الناس بنفسه الكبيرة كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة ؛ إن الشيء النهائي لا يوجد إلا في الصغائر والشر ، أما الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسمى فهذه حقائق أزلية وجدت لنفسها ؛ كالهواء يتنفسه كل الأحياء على هذه الأرض ولا ينتهي ، ولا يعرف أين ينتهي ؛ وكما ينبعث النور من الشمس والكواكب إلى هذه الارض ، يشبه أن تكون تلك الصفات منبعثة إلى النفوس من أنوار الملائكة ، وبهذا كان أكبر الناس حظاً منها هم الأنبياء المتصلين بتلك الأنوار

ومن رحمة الله أن جعل في كل النفوس الانسانية أصلا صغيراً ، يجمع فكرة الخير والكمال وعظائم النفس والجمال الأسمى ، وقد تعظم فيه هذه الصفات كلها أو بعضها ، وقد تصغر فيه بعضها أو كلها . ألا وهو الحب

لابد أن تمر كل حياة إنسانية في نوع من أنواع الحب ؛ من رقة النفس ورحمتها ، إلى هوى النفس وعشقها

وإذا بلغ الحب أن يكون عشقاً ، وضع يده على الفاتيح العصبية للنفس ، وفتح للعظائم والمعجزات أبوابها ؛ حتى إنه ليجعل الخرافة الفارغة معجزة دقيقة ، ويملأ الحياة بمعان لم تكن فيها من قبل ، ويصبح سر هذا الحب لا ينتهي ؟ إذ هو سر لا يدرك ولا يعرف

إجهدْ جهدَكَ يا صاحبي ، فما هو قفصك الفكريُّ ذلك الشعاعُ الذي يحبسك ، ولكنه صقلُ النفس لتتلقى الأنوار ، ولا بدّ للمرآة من ظاهرٍ غيرِ ظاهرِ الحَجَر

* * *

قلتُ لنفسي : فما أشدّه مضضاً أُعانيه ! إن أمرئ ليذهب فرَطاً . أ كلما ابتغيتُ من الحياة مَرحاً أطربُ له وأهتزّ ، جاءتني بفكرة أستكدُّ فيها وأدأب . أهذا السرور الذي لا يزال يقع بين الناس هو الذي لايكاد يقع لي . وهل أنا شجرة في مغرسها ؛ تنمو صاعدةً بفروعها ، ونازلةً بجذورها غير أنها لاتبرح مكانها . أو أنا تمثالٌ على قاعدته ؛ لا يتزحزحُ عنها إلا ساعةَ لا يكون تمثالاً ، ولا يَدعُها حتى تَدعَه معاني العظمةِ التي نُصب لها ؟

وقالت لي النفس : ويحك ! لا تطلب في كونك الصغير ما ليس فيه ؛ إن الناس لو ارتفعوا إلى السماء وتقلبوا فيها كما يَسيح أهلُ قارّةٍ من الأرض في قارّةٍ غيرها ، وابتغوا أن يحملوا معهم مما هناك تَذكاراً صغيراً إلى الأرض — لوجدوا أصغرَ ما هنالك أكبرَ من الأرض كلها . فأنت سائح في سموات

أنت كالنائم ؛ له أن يَرى وليس له أن يأخذ شيئاً مما يرى ، إلا وَصفَه ، وحكايته ، والسرورَ بما التذّ منه ، والألمَ بما توجّع له

لن تكون في الأرض شجرةً برجلين تذهب هنا وههنا ، ولكن الشجرة ترسل أثمارها يتناقلها الناس ، وهي تُبدع الثمار إبداعَ المؤلف العبقريّ ما يؤلفه بأشدّ الكدّ وأعظم الجهد ، مُطلِقةً ضميرها في الفكرة الصغيرة ، تَعقِدُها شيئاً شيئاً ثم تعود عليها بالزيادة ، ولاتزال كل وقت تعود عليها ، حتى تستفرغَ أقصى القوة ، ثم يكونُ سرورُها في أن تَهبَ فائدتَها ، لأنها لذلك وُجدَتْ

إن في الشجرة طبيعةً صادقةً لاشهوةً مكذوبة ، فالحياةُ فيها على حقيقتها ؛ وأكثرُ ما تكون الحياةُ في الانسان على مجازها ، وشرطُ المجاز الخيالُ والمبالغةُ والتلوين . ولكن متى اختار اللهُ رجلاً فأقرّ فيه سراً من أسرار الطبيعة الصادقة ، ووهب له العاطفةَ القادرة التي تَصنعُ ثمارَها — فقد غَرَسَه شجرةً في منبتها لامفرّ ولا مندوحة . وقد يُخَيل له ضعف طبيعته البشرية أحياناً أن نَضرةَ الجد التي تعلوه وتتألّق حوله

كشعاع الكوكب — هي تَعبُه وضجره ، أو أثر انخذاله وألمه ومسكنته . وهذا من شقاء العقل ، فانه دائما يضيف شيئاً الى شيء ، ويخلط معنًى بمعنى ، ولا يترك حقيقةً على ماهي ؛ كأن فيه ما في الطفل من غريزة التقليد ، والعقل لا يرى أمامه إلا الألٰهية ، فهو يقلدها في مُداخلةِ الأشياء بعضها في بعض ، لايجاد الأسرار بعضها من بعض

ومن ثمَّ كانت الحقيقةُ الصريحةُ الثابتةُ مَدعاةً للملل العقليّ في الانسان ، لا يكاد يقيم عليها أو يتقيد بها ، فما نال شيئاً إلا ليطمع في غيره ، وما فاز بلذةٍ إلا ليزهدَ فيها ، وأجمل ما أحبه الانسانُ أن يناله . فلا بدّ لهذا الانسان مع كل صواب من جزءٍ من الخطأ ، فان هو لم يجد خطأ في شيءٍ اُنتفَكَ لنفسه الخطأ المضحك في شبه رواية خيالية

إنه لشعر سخيف بالغُ السخافة أن يُتخَيَّل الغريق مفكراً في صيد سمكٍ رآها . . . ولكن هذا من أبلغ البلاغة عند العقل الذي يبحث عن وهمٍ يضيفه الى هذه الحقيقة ليضحك منها ، كما يبحث لنفسه أحياناً في أجمل حقائق اللذة عن ألمٍ يتألم به ليَعبَسَ فيه !

* * *

قلت لنفسي : فهل ينبغي لي أن أحرق دمي لأني أفكر ، وهل أظل دائماً بهذا التفكير كالذي ينظر في وجه حسناء بمنظار مكبّر لايريه ذلك الوجه المشوقَ إلا نقوباً وتخرماً كأنه خشبةٌ نُزعت منها مساميرُ غليظة . . . ! فلا يجد المسكين هذه الحقيقة إلا ليفقد ذلك الجمال . وهل بُدٌّ من الشبه بين بعض الناس وبين ما ارتَصد له من عمل ؛ فلا يكون الحوذيُّ حوذيّاً إلا لشبه بين نفسه وبين الخيل والبغال والحمير . . . ؟

وقالتْ لي النفس : إن فأس الحطاب لاتكون من أداة الطبيب ، فخذ لكل شيء أداتَه ، وكن جاهلاً أحياناً ، ولكن مثلَ الجهل الذي يصنع لوجه الطفل بشاشته الدائمة ؛ فهذا الجهل هو أكبر علم الشعور الدقيق المرهَف ، ولولاه لهلك الأنبياء والحكماء والشعراء غمّاً وكمداً ، ولكانوا في هذا الوجود ، على هذه الأرض ، بين هذه الحقائق — كالذي قُيّد وحُبس في رَهَجٍ تثيره القدم والخف والحافر ؛ لايتنفس إلا الغبار يثار من حوله الى أن يقضى عليه

إجهلْ جهلَك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة ؛ فإنها العِلْمُ الخبيث الذي يُفسد الروح ، واعرفْ كيف تقول لِرُوحك الطفلةِ في ملائكيتها حين تساوِرُكَ الشهوات : « هذا ليس لي ؛ هذا لا ينبغي لي »

إن الروح الكبيرة هي في حقيقتها الطفلُ الملائكيّ

وعِلْمُ خسائسِ الحياة يجعل للانسان في كل خسيسةٍ نفساً تتعلقُ بها ، فيكون المسكينُ بين نفسين وثلاثٍ وأربع ، الى ثلاثين وأربعين ، كأنهن يتنازعنه فيضيعُ بهذه الكثرة ، ويصبحُ بعضه بلاءً على بعض ، وتشغله الفضول ، فيعود لها كالمزبلة لما أُلقي فيها ، وَيُمْحَقُ في نفسه الطبيعةِ حسُّ الفرح بجمال الطبيعة ، كما يُمحَق في المزبلة معنى النظافة ومعنى الحسّ بها

هذه الأنفسُ الخياليةُ في هذا الانسان المنكود، هي الأرواح التي يَنفُخُها في مصائبه ، فتجعلها مصائبَ حيّةً تعيشُ في وجوده وتعمل فيه أعمالَها ، ولولاها لماتت في نفسه مطامعُ كثيرة ، فماتت له مصائب كثيرة

انظر بالروح الشاعرة ، ترَ الكونَ كلّه في سمائه وأرضه انسجاماً واحداً ليس فيه إلا الجمال والسحر وفتنةُ الطرب ، وانظر بالعقل العالم ، فلن ترى في الكون كلّه إلا موادَّ علم الطبيعة والكيمياء

وَمَدَى الروح جمالُ الكونِ كلّه ؛ وَمَدَى العقل قطعةٌ من حجر ، أو عظمةٌ من حيوان ، أو نسيجةٌ من نبات ، أو فِلْذةٌ من معدن ، وما أشبهها

إجْهلْ جهلَك يا صاحبي ؛ ففي كل حُسْنٍ غزَلٌ ، بشرط ألاّ تكونَ العاشقَ الطامع ، وإلاّ أَصَبْتَ في كل حسنٍ همًّا ومَشْغَلة . . . !

***

قلتُ لنفسي : الى الآن لم أقلْ لكِ ذلك المعنى الذي كتمتُه عنكِ

وقالت لي النفس : وإلى الآن لم أقل لكَ إلا جوابَ ذلك الذي كتمته عني . . . ؟

طنطا — مصطفى صادق الرافعي

٣ ـ محمد بك المويلحي

للأستاذ عبد العزيز البشري

الرحوم محمد بك المويلحي

نبذة في نشأته ودراسته

لقد عرفتَ مما قصصنا عليك أن هذا الرجل وإن نشأ عظامياً بما لبيته من الغنى والحسب ، فقد نشأ عصامياً بما حصّل من العلم والأدب . اتكأ على نفسه فأكبَّ على الكتب دارِسها ومجفوّها . ولعل أكثر نظره إنما كان في كتب التاريخ والسيَر ، ولو قد وقع لك صدر من آثار أبيه وآثاره لرأيت لهما في مواطن الاستشهاد فطنةً عجيبة ، الى دقائق دقيقة ، مما يَعلَق بزوايا التاريخ أو بحواشيه ، قل أن يفطن لها أكثر القارئين ، وقلّ أن يحفل بها أو يعلّقها من يفطن اليها من الدارسين . على أنها قد يكون لها في دواعي الكلام مقام عظيم ، وكثيراً ما ترفعه درجاتٍ على درجات

كذلك اعتمد محمد في تحصيل العلم والآداب على الاتصال بصدور أهل الفضل يصاحبهم ويلابسهم ، ويلازم مجالسهم ، ويشهد محاضراتهم ومقاولاتهم . كذلك داخل رجالَ الحكم وأصحاب السياسة في مصر وفي الآستانة فعرف أساليبهم ، وأدرك مذاهبهم . ولم ينكسر على هذا وهذا ؛ بل لقد صاحبَ كذلك